شعر النسيب وسلطة الخلافة

(دراسة في سوسيولجيا النقد العربي القديم)

أ.د.داود سلوم الأستاذ المشارك د. محمد أحمد ربيع
جامعة جرش الأهلية عميد كلية الآداب . جامعة جرش الأهلية

مقدمة البحث :

نريد أن نقدم إمام هذا البحث حقيقتين أثنتين. الأولـــى إن الإســلام ممثــلاً بالقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف لم يحرما هذا الغرض وأن القــرآن فــي سورة الشعراء قد بيّن نفسية الشاعر ولم يشرع له. وأن الرسول الكريم أستمع إلى الشعر بما فيه شعر الغزل ولم يعترض عليه.

الحقيقة الثانية : أن طبيعة البحث أخطرتنا إلى النظر في ســـيرة الخلفــاء الذين تعرضوا لهذا الفن، في محاولة لتفسير موقف السلطة من خلال حياة الخليفــة الخاصة، ولهذا فقد أوردنا نصوصاً تبتعد عن مادة النقد في سبيل شرح موقف هذا الخليفة أو ذاك. لأن موقف الخليفة من هذا النشاط الفني في الأعم الأغلب ينبع من ثقافته أو موقفه الديني أو الاجتماعي أو الأخلاقي ولذلك فقد اضطرنا هذا المنــهج الذي يسمى علم اجتماع النقد ان نوغل في التحليل لغرض بحث علمي محـــايد لا يراد منه الإساءة إلى أي اسم من هذه الأسماء. ولم نبتعد في تحليلنا عما أوردتـــه كتب التاريخ وتاريخ الأدب عنهم . وكان كل هدفنا في هذه الدراســـة أن نــبرهن على ان الشاعر لم يرتكب خطأ في نظمة شعر النسيب النبيل الذي نظم في نســاء فضليات وان السلطة ليست على حق فالتدخل بين الشاعر وإبداعه .

-١-

الغزل قبل الإسلام

ميز النقاد العرب القدامى بين مصطلحي " النسيب " و" الغزل" فجعلوا الأول للشعر والثاني للسلوك وأصبح اليوم " مصطلح الغزل " يطلق على الشعر أيضاً فقالوا : شعر الغزل ومدرسة الغزل الحجازية وقصيدة الغزل الخ...

بقول قدامه عن الغزل بأنه " التصابي والاستهتار بمودات النساء "ثم يقول : " يقال في الإنسان : أنه غزل إذا كان متشكلاً بالصورة التي تليق بالنساء وتجانس موافقتهن لحاجته إلى الوجه الذي يجذبهن إلى أن يملن إليه. والذين يميلهن إليه هو : الشمائل الحلوة، والمعاطف الظريفة، والحركات اللطيفة، والكلام المستعذب، والمزاح المستغرب "(١) ثم يصف النسيب (أي الشعر) وخصائصه ويقول :

" أن يكون النسيب الذي يتم به الغرض هو ما كثرت فيه الأدلة على التهالك والصبابة وتظاهرت فيه الشواهد على إفراط الوجد واللوعة " (٢) والذي نريد أن نقرره هنا في هذا الجزء من البحث أن كل الشعر العربي الجاهلي – وهو أساس شعر الغزل العربي – شعر عفيف لا يعرف الفحش أو الصراحة أو الفجور. وأن أغلب الشعراء الذين عرفوا بما يسمى بالتعهر هم شعراء الحضارة الذين نشأوا نشأة مترفة كأسدي القيسي وكان ابن ملك كندة أو الشعراء الذين عاشوا حياة مترفة وقاربوا بلاطات الأمراء في إمارتي الغساسنة والمناذرة مثل الاعشى والنابغة الذبياني. وأن النماذج المتعهرة التي تركها هؤلاء وراءهم لم تكن لتزيد على سطور، وقد رصد النقاد العرب ومؤرخو تاريخ الأدب ذلك.

قال أبن سلاّم :

" وكان من الشعراء من يتأله في جاهليته ويتعفف ولا يستهتر (أي يبالغ) بالفواحش، ولا يتهكم في الهجاء، ومنهم من كان ينعى على نفسه ويتعهد ومنهم امروء القيس والأعشى. وكان الفرزدق أقول أهل الإسلام في هذا الفن وكان جرير مع إفراطه في الهجاء يعفّ عن ذكر النساء. كان لا يشبب الا بامرأة يملكها .."(٣)

ويذكر ذلك أن قتيبة روايةً عن أحد مصادره ويقول : " كان امروء القيس ممن يتعهر في شعره وذلك قوله :

فمثلك حبلى قد طرقت ومرضعٍ

وقال : **سموت إليها بعدما نام أهلها ...**"(٤)

ولما كان الشعر الجاهلي في أغلبه أعرابياً بدوياً فأن أهل البداوة لم يعرفوا السلوك المريب في أشعارهم. وقد سُئِل أعرابي من الجزيرة في الإسلام قيل له : " أتعرف الزنا؟ قال وكيف لا ؟ قيل : فما هو ؟ قال : مص الريقة، ولثم العشيقة، و أتاخذ من الحديث بنصيب !"(٥) ولهذا فإذا كان الشاعر مرآة عصره فهو لم يكتب في الغزل الا ما يحبه جمهوره وما يريدون الاستماع إليه.

فأن هذا الأعرابي وهو في الإسلام يجهل كل السلوك الشاذ الذي ظهر في الحواضر وانه بلا شك في أنه يجهل ما نزل به القرآن الكريم حول الموضوع ويجهل العقوبة والشهادة في هذا الحدث ولم يسمع بتهمة المغيرة بن شعبة وأم جميل في البصرة من هذه التهمة وقد فصل فيها الطبري فلتراجع هنا. قد تردد بعض الأحيان أبياتٌ شاذة في الجاهلية والإسلام في هجاء النساء – هجاءً كيدياً – يعيب عليهن بعض صفاتهن الخلقية حسب مقياس الجمال السائد في الصحراء. فقد كانوا يعيبون ذلك الشئ من المرأة بالسعة أو الصغر. وفي (أخبار النساء) نوادر طريفة حول ذلك منها ما أجابت به " الفريعة " جدة حسان بن ثابت عن أسباب طلاقها المتعددة فلتراجع هناك.

ولذلك يمكن أن نقول باطمئنان كبير أن الشاعر الجاهلي لم يكن قد تعدى الحدود المرسومة له في الغزل فلم يثر موقفاً يقتضي التدخل من الهيئة الاجتماعية ولم يرد أي اعتراض على أدب الشاعر الا في حالة واحدة شاذة رويت عن قصيدة النابغة " المتجردة" حيث هدد النعمان الشاعر بسببها وهي تحتاج هنا إلى مناقشة لان ما دار حول القصيدة من حوادث يدخل في باب الحكايات التي لا تقف للجدل العلمي.

-٣-

قيل أن سبب العداء بين النعمان بن المنذر والنابغة وهرب النابغة وكل ما قاله في ابتعاده عن بلاط الحيرة كان سببه نظم قصيدة في امرأة النعمان حيث بالغ الشاعر في وصف عالم يجب أن يصفه. هكذا تقول أخبار ولكن عند النظر إلى

القصيدة وترتيبها وذكر الأسباب السياسية التي أثارت هذا الخلاف مع السلطة نجد ألاّ صحة لكل ما قيل وألاّ علاقة بين الموضوع الذي نظم فيه الشاعر وغضب النعمان عليه. ويبدو أن القصاص في الإسلام وهم يجمعون شعر النابغة قد ركزوا على هذا السبب – الغزل الداعر – في جعله السبب الأول والأخير لغضب النعمان وأغفلوا ما ورد في شعر الشاعر من ذكر الأسباب الحقيقية. والقصاص والرواة الذين يشرحون النصوص قد أساءوا في ذلك إلى الحقيقة وقد أتهمهم ابن سلاّم في أنهم كثيراً ما يضعون الأخبار والأشعار المناسبة لإثبات ما يريدون إثباته باطلاً على حساب الحقيقة، وسمعة الشاعر. ولذلك فانه يقول في أثر القصاص في انتحال الأخبار أو النصوص في الأدب العربي :

" ولا خلاف في أن هناك مصنوع تكثّر به الأحاديث ويستعان به على السهر عند الملوك، والملوك لا تستقصي " (٦)

أن السبب الحقيقي للخلاف بين النابغة الذبياني والنعمان بن المنذر هو غضب النعمان من زيارة الشاعر لبلاط الغساسنة ويشرح الشاعر ذلك ويدافع عن نفسه قائلاً :

لئن كنت قد بلغت عني خيانة
لمبلغك الواشي أغشّ وأكذب
ولكني كنت امرءاً لي جانب
من الأرض فيه مستراد ومذهب
ملوك وأخوان إذا ما أتيتهم
أحكم في أموالهم واقرَّب
كفعلك في قوم أراك اصطنعتهم
فلم ترهم في شكر ذلك أذنبوا ؟(٧)

أما ما قالوا عن وصف زوجة النعمان فأنها حكاية أشبه بالحكايات الخرافية للأسباب الآتية:

١ - طبيعة البيئة الحضرية :

لقد فات الرواة الخلاف بين البيئة البدوية والحضرية في السكن فملوك الحيرة كانوا يسكنون القصور وكان لهما قصران مشهوران هما "الخورنق " و "السدير " وأن هذه القصور في الغالب ما تكون قلاعاً تحوي القاعات حيث يظهر ملك الحيرة للوفود والضيوف، وغرف سكن العائلة ومرافق الدار. وإذا قايسنا قلعة (الأخيضر) الباقية إلى اليوم في غرب العراق على هذه القصور فليس من الممكن لاي وافد أو ضيف أن يلتقي بأهل الأمير أو أفراد عائلته. وأن قاعات الاستقبال هي نفسها المضافة حيث يقدم الطعام والشراب وحيث تعقد فيها المجالس الجادة ومجالس اللهو وقد تتخذ منامة للوفود أيضاً. وكثيراً ما تزور هذه البلاطات فرق راقصة أو مغنيات أو جوار يعرضن للبيع وقد تعرى هؤلاء النسوة كي يطلع الحاكم على البضاعة التي يريد شراءها أمام الضيوف أو الندماء أو الخاصة. وقد ورد في أخبار المسلمين مثل هذا فان جارية عارية قدمتن إلى معاوية بن أبي سفيان في مجلس فيه بعض وجوه الوفود فوضع محجنه على جرها وقال : نعم المتاع لو وجد متاعاً ثم وهب إلى أحدهم وقال : أنها لا تحل ليزيد (لا نه رآها عارية).

أن مثل هذه المشاهد الشاذة المروية عن هذه الطبقات المترفه وأن شيوع الخمر ووجود الخمارات والمواخير في الحيرة لم يجعل المشهد غريباً. وفي سبيل أن تتسق القصيدة ويزول فيها التناقض فإننا نرى أن ملك الحيرة طلب من النابغة أن يصف جارية من هذه الجواري اللواتي يظهرن للغناء أو الرقص أو سقي الخمرة فقال الشاعر ما قال.

١-تناقض الموضوع : حين يصف النابغة من كلم عنها كي يصفها فانه ينسب إلى الملك ما قال عنها ولذلك فإن الشاعر يقول :

زعم الهمام بان فاها بارد	عذب مقبله لذيذ المورد
زعم الهمام ولم أذقه انه	عذب إذا ما دقته قلت ازدد
زعم الهمام ولم أذقه	يشفي برياً ريقها العطش الصدي

كمَا نرى أن الشاعر في وصف ما يرى منها وما يتذوقه الرجل من المـرآة من الريق ينسب ذلك إلى العمان لأنه هو مالك الجارية وهو الذي قبلـها وتـذوق ريقها. فهل يعقل أذن أن يعود الشاعر ليصف من تلك المـرأة مـا لا تكشفه الا للزوج أو الزاني ؟ في قوله :

فإذا لمست ....

وإذا طعنت ......

وإذا نزعت ......

وإذا يعض ....

ويكاد ينزع ......

لا وارد .... (٨)

كيف ينسب للملك طعم الريق وينسب الشاعر لنفسه بأنه اقترب منـها هـذا القرب ؟

نحن نرى – إزالة الشك في عدم تدخل السلطة في الجاهلية فـي موضـوع الغزل – أن القصيدة قد حرّف تسلسلها وأن هذا القسم في القصيدة يعـود للقسـم الأول الذي تغزل فيه بامرأة كان يألفها جداً ويزورها صباحاً ومسـاءاً أسـمها " مهرد " وفي سبيل إعطاء تفسير غريب للعلاقة بين الشاعر والسلطة حرّف تسلسل القصيدة وأضيف القسم الذي قيل في " مهرد " إلى ما ذكر من ريـق جاريـة أو راقصة أو مغنية في بلاط الملك وغالباً ما يكن هؤلاء النسوة أجنبيات فارسيات أو روميات أو نبطيات .

فقد قال الشاعر عن (مهدد) هذه :

حان الرحيل ولو تودع (مهدداً)

والصبح والامساء منها موعدي

ويصف سمرتها وسواد المقلتين ويصف نحرها والقلادة الذهبيـة المتوقـدة ويصف سمرتها الممزوجة بالزعفران مما يجعلها تميل إلى الصفرة ويشبّه قوامـها بالغصن المتأود ويصف البطن ومكنه وطياته ويصف الصدر المقعد الذي يرفـع

الثوب ويصف المتنين (وهما جانبا الظهر) ويصف الأرداف الريا وعريها البض.(٩)

أجد أن الأبيات التي التي في القصيدة يكون مكانها الملائم في هذا الموقع من القصيدة وليس بعد ومن جارية النعمان التي زعم الهمام بأن فاها بارد .

وبهذا تنتهي إلى أن الزعم بان الخلاف بين الشاعر وبين الملك العنيف جداً الذي كان يسمى (مفرط الحجارة) لم يكن قد قام بسبب انه وصف امرأته وقد عرفنا من طبيعة قصور الأمارة انه من المستحيل أن يتقي الإنسان بعائلة الحاكم لسعة هذه القصور التي يسكنوها ولوجود مكان ثابت يأتقي به الشاعر والضيوف والوفود بالملك في مجالس الجد واللهو .

ومن هنا نخلص إلى القول بأن الشاعر الجاهلي لم يعان من أية رقابة فنية في فن النسيب الا إذا قصد الشاعر إلى امرأة أو أخت المهجو قصداً وهذا لم يحدث الا نادراً في شعر الحرب واسر نساء العدو وهذه أمور تكفلت بها المجاميع الشعرية مثل الحماسات والمفضليات والاصمعيات. فقد نفع فيها شئ من هذا .

-٣-

الغزل في الخلافة الراشدة :

نلاحظ في الفترة الإسلامية شدة الارتباط بين الشعر والسلطة و لا يمكن أن يعطي الإنسان تعليلاً كافياً و لا سبباً مقنعاً لوحده. ولهذا يجب أن ننظر في عدد من الأسباب التي قد تكون مجتمعه كلها أو أغلبها هي السبب وراء هذا الارتباط العنيف الذي كبّل الشاعر ووضع القيود على حريته في شعر الغزل .

لعل من أهم الأسباب هو هذا التلاحم بين لغة الكلام والنص الأدبي ولاسيما عند رجال السلطة في القرن الأول الهجري حيث كانت ثقافة الخليفة أو الأمير قريبة جداً من لغته الأولى ولغة الشعراء بحيث يكون للفظة ومعناها مفهوم عنيف في ذهن السامع ولذلك فأنهم كانوا يكبرون ما يقوله الشاعر ويخافون هذا التجديد المتجاسر الذي نشأ في مدن الحضارة الجديدة .

وقد يكون من هذا الأسباب شدة التلاحم بين النص القرآني والعربي المسلم في السلطة أو خارجها إذ أصبح القرآن جزءاً لا يتجزأ من استشهاد الخطباء

والكتاب والشعراء وأن شدة إيحاء اللفظة القرآنية شحذ إيحاء ألفاظ اللغة الأخرى فكان النص يثير في خيال السامع المسلم أكثر مما كان يثير في خيال السامع الجاهلي .

ومن الأسباب التي يمكن أن تقدم أيضاً عند الإيغال في الحضارة في القرنين الأول والثاني نشأة المعلمين المدربين على اختيار أجود نصوص العربية لتعليم أبناء السلطة قبل وصولهم إلى سدة الحكم وكان هذا ينبّه أذهانهم على ما في النص من إبداع وصور ومجاز واستعارة وتورية وقد كان أغلب علماء العربية من المعلمين كالمبرّد والمفضل الضبي وكان أبو الأسود منهم وكان الحجاج ذلك الخطيب المفوّه.

وكان للقصاص والرواة أثر آخر في جلب الحكايات والنصوص والأشعار إلى بلاطات الخلفاء كان يعطي للخلفاء مداً ثقافياً وعمقاً في الاطلاع على التراث العربي في محاسن نصوصه ومساوئها .

وأن نشاط حركة التأليف وظهور إرهاصات في تفسير القرآن والدراسات الشعرية وبدء نشوء البلاغة وتاريخ الأدب ومجاميع شعر القبائل والشعراء ووجود رواة الشعراء قرّب كل ذلك بين السلطة والأدب وقد خلقت هذه الجهود عالمين متصلين ملتحمين من رجال السلطة ورجال الأدب فلم يعش أحدهما بعيداً عن الآخر في برج عاجي، بل كان الخليفة يترسم الصور القديمة ليقايس عليها صور الشعراء المحدثين.

ولعل أهم من كل ذلك شعر المدح الذي أصبح جزءاً لا يتجزأ من العلاقة بين الخليفة والأمير وبين الشاعر والمجتمع.

فالشعراء كانت لهم مواسمهم التي يقصدون بها دمشق للمدح ولعل أهم هذه المواسم يكون عند قيام خليفة جديد بعد موت الخليفة السابق وفي الغالب كان الخلفاء الجدد يزيدون في عطاء الناس وعطايا الشعراء لربطهم ربطاً محكماً بالعهد الجديد : " أن ذهب حمار فحمار في الرباط والزيادة عشرة " .

وأول ما نريد أن نؤسسه هنا في مسألة حق السلطة في التدخل في شعر الغزل بان الإسلام في القرآن العظيم وأن الرسول الكريم لم يتدخلا في إبداع

الشاعر. فالقرآن يقول واصفاً ومحللاً ومقرراً حقيقة فنية مهمة في سرّ الإبداع : " وانهم يقولون ما لا يفعلون " وقال الرسول في المروي عنه : " لا تترك العرب الشعر حتى تترك الابل الحنين" والحنين واللوعة في الغزل أو الرثاء عاطفتان ثابتتان لا يمكن للقوانين أن تغيرها ونحن لا نشك في أنه أستمع لقصيدة البُردة وكان الغزل فيها يكوّن جزءاً لا بأس به وأن تكريم الشاعر معناه تكريم الرسول (ﷺ) للإبداع في أي موضوع كتب فيه الشاعر.

ولذلك نرى أن تدخل الخلفاء التعسفي في حرية الشاعر ومطاردة الشاعر بالتعنيف واللوم أو الطرد أو النفي القريب من موطن الشاعر أو البعيد عنه في (دهلك)لا في البحر الأحمر أو القتل تقوم على أمور لا تتعلق بالتشريع الإسلامي لا من قريب و لا بعيد وقد اختلفت بواعثها في نفوس الخلفاء وفي علاقتهم بالشعراء وسيرهم وما يشاع عنهم وهذه أمور سنحاول أن نفسرها حين نتكلم عن كل نافذ على حدة في هذا البحث لنربط الأسباب النفسية والاجتماعية التي دعت إلى ذلك.

-٣-

أن أول ما يجابهنا في الخلافة الراشدة بعد وفاة الرسول مع وجود القرآن وأقوال الرسول وسنته الحميدة هو موقف عمر بن الخطاب من الشعر فأنه ظاهرة نقدية تستحق الدراسة والتحليل. وكل ما يشاع لعمر بن الخطاب في النقد قوله في زهير بأن كان لا يعاضل بين الكلامين ولا تتسع حواشي الكلام ولا يمدح المرء الا بما فيه. ولكن مؤرخي النقد أغفلوا كثيراً من النصوص في تاريخ الأدب التي تسلب عن عمر بن الخطاب هذا الإدراك الفني الراقي وتجعله أقرب ما يكون إلى ما قرره افلاطون في الجمهورية من قوانين مدمره للإبداع الأدبي.

فهو في خلافته – والأسباب والتعليلات تأتي في آخر حديث النقد – حاول أن يلغي الشعر كظاهرة إبداعية وفضل انصراف الشعراء عن الشعر إلى الدين. نوضح ذلك في النص المقتبس من كتاب الأغاني.

قال أبو الفرج :

" كتب عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) إلى المغيره بن شعبة وهو على الكوفة أن أستنشد من قبلك من شعراء معدل ما قالوا في الإسلام. فأرسل إلى الأغلب العجلي فاستنشده فقال :

لقد سألت هيّناً موجودا

ارجزاً تريد أم قصيداً ؟

ثم أرسل إلى لبيدا. فقال : أن شئت مما عفا الله عنه – يعني الجاهلية – فقلت. قال : لا. أنشدني مما قلت في الإسلام. فانطلق لبيد فكتب سورة البقرة في صحيفة وقال : ابلني الله عز وجل بهذه في الإسلام مكان الشعر.

فكتب المغيرة بذلك إلى عمر، فنقص عمر من عطاء الأغلب خمسمائة وجعلها في عطاء لبيد. فكتب الأغلب إلى عمر: يا أمير المؤمنين أتنقص عطائي إن أطعتك ؟ فرد عليه خمسمائة وأقرّ لبيد على الفين وخمسمائة .. "[١٠]

وأذ لم ينجح هذا في سياسة عمر الفنية فانه توجه إلى شعر (الغزل) وحاول منعه وكم أفواه الشعراء وتحريم الشعر الذي يعبر فيه الشاعر عن الحب. قال أبو الفرج : " تقدم عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) إلى الشعراء الا يشبب أحد بامرأة الا جلده .... فقال حميد أبن ثور:

فهل أنا إن عللت نفسي بسرحة

من السَّرح موجود على طريق .. [١١]

وعزل عمر أحد ولاته لانه كتب شعراً إلى امرأته يشم منه رائحة العبث واللهو. قال أبن قيم الجوزية : " ولىّ عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) النعمان بن نظلة العدوي بميسان وأراد رحيل امرأته معه فأبت ذلك وكرهته. فلما وصل إلى ميسان أراد أن يغيرها فترحل إليه فكتب إليها:

الا هل أتى الحسناء خليلها

بميسان يسقى من زجاج وحنتم

إذا شئت غنتني دهافين قرية

وصاحبه يبحثو على خد مبسم

فأن كنت ندماني فبا لأكبر اسقني

ولا تسقي بالأصغر المتثلم

لعل أمير المؤمنين يسوؤه

تنادمنا في الجوسق المتهدم

فبلغت الأبيات عمر بن الخطاب. فقال : أي والله وأبي وأبيك يسؤوني. يا غلام أكتب بعزلة. فلما قدم على عمر بهذا. فقال : يا أمير المؤمنين ما شربتها قطّ ولا قلت الأبيات الا بسبب كذا. فقال عمر : أظن ذلك. ولكن لا تعمل لي عملاً أبداً..." (١٢)

ولا بد أن نضع هنا تعليلاً مرضياً لموقف عمر وهو موقف خاص لا ينبع من القرآن أو السنة. ويمكن أن نقدم سببين اثنين دفعا بعمر إلى هذا الموقف المتزمت أحدهما سياسي والآخر شخصي. وأن السبب الأول قد لا يقنع المعاصر إقناعاً تاماً وإنما هو سبب تبريري ودفاعاً عن موقف خليفة راشدي.

نرى أن السبب الأول يكمن في مسؤولية عمر الضخمة. فقد فتحت في زمنه بلاد واسعة امتدت من حدود مصر الغربية إلى حدود شرق ايران. وأن ملكاً بهذه الضخامة يحتاج إلى جند وقادة يليقون بضبط هذا الملك الواسع ويجب أن يتحلوا بالانضباط النفسي والخلقي وإذا كان الشعر لم يضعف هؤلاء الجنود فهو حري أن يضعف مكابدة العفة في عوائلهم ونسائهم اللواتي تركوهن خلفهم. فقد أهدر دم شاعر يهودي تغزل بامرأة مسلمة كان زوجها في الفتوح. وأوصى بإعادة الازداج إلى أهليهم بعد كل ستة أشهر من الغياب. فتحريمه شعر الغزل خاصة والشعر عامة هو من باب إلغاء الأغراء الذي قد يثيره الشعر في نفس السامع أو السامعة. فعمر في هذا مشرّع أخلاقي لجمهورية – جوازاً- على ارض الواقع تشبه جمهورية افلاطون. قلنا أن هذا التفسير تفسير تبريري ودفاع عن موقف يبدو بعيداً عن فهم طبيعة النفس البشرية وتشريع الدين وموقف الرسول نفسه من شعر النسيب أو غيره من الأغراض ولأن هذا التفسير يجب أن يجعل من عمر مفكراً بمستوى المفكرين المعاصرين في النظم السياسية التي نظرت إلى الأدب نظرة فكرية ومدى قدرته على توجيه الفكر أو الانحراف به بعيداً عن أغراض النظريات

السياسية. بقي أمامنا السبب الثاني وهو اقرب إلى واقع البيئة العربية وطبيعة الرجل العربي في مراحل حياته المختلفة.

فقد أسلم عمر وقد جاوز الأربعين وحين أصبح خليفة كان قد تجاوز الستين سنة ولكن عمر في سلوكه اليومي لم يفرق بين فتوة النفس التي ضخّتها تعاليم الإسلام في النفس العربية وبين فتوة الجسد. فقد تزوج عمر بأكثر من امرأة وهو في هذه السن العالية. فعلى سبيل المثال :

كانت عاتكة بنت زيد بن عمر بن نفيل قد تزوجها عبد الله بن أبي بكر وقد أخذ عليها عهداً الا تتزوج بعده " فجاءه عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) فأفتاها أن تنكح فقالت : لست أقبل في هذا كلامك وحدك – لانه بلغها أنه يريد أن يتزوجها – فجاءها بعلي بن أبي طالب (رضي الله عنه) فأفتاها بذلك فخطبها عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) فتزوجته " (١٣) ولعاتكة في زواجها من عمر قصة طريفة مع الأمام علي. كانت عاتكة قد رثت زوجها الأول عبد الله بعد وفاته وحين تزوجها عمر قال له علي :

" يا أمير المؤمنين، دعني أكلم عاتكة، فقال : فأخذ علي بجانب الخدر ثم قال : ياعديّة نفسها :

وآليت لا تنفك عيني قريرة عليك ولا ينفك جلدي اغبرا (يذكرها بالشعر الذي قالته) فبكت. فقال عمر : ما دعاك إلى هذا ؟ كل النساء يفعل هذا " (١٤)

وتزوج عمر وهو في هذا السن العالية الفتاة التي راهقت أم كلثوم ابنة عليّ بن أبي طالب. وقد خطبها منه عمر فأنعم له بها ثم أرسل بيدها حاجة ليراها. فلمس ثوبها فنترته من يده وقالت: إليك عني أيها الشيخ الخرف. ثم عادت إلى أبيها تشكو عمر فأعلمها بأنه قد خطبها منه وقد أنعم له بها وبأنه سيكون بعلاً لها.

أن عمر وقد بلغ هذا المبلغ من السن العالية وقد فارقته فتوة الجسد كان يتوجس خيفة من شعر الغزل ويخاف على المرأة من الاستماع إليه وكان عمر يريد أن يجعل دولة الإسلام على قياس واحد في الدين والتبتل وكأنه لم يدرك أن الناس في دولته أجيال كل جيل له سن وكل جيل له متنفس في الشعر أو العبادة.

وعلى رغم من أن عمر كان يتزوج هؤلاء النسوة فأنه لم يكـن ليوسـع عليهن في الرزق وفيما يلهي المرأة كاللباس والزينة وكان مقتراً. فقد خطب أربعة من الصحابة الأخيار امرأة من قريش وهم عمر بن الخطاب والزبير بـن العـوام وعلي بن أبي طالب وطلحة أبن عبيد الله. فقالت لمن حولها من النسوة : وما أفعل بعمر فأنه حين يخرج يغلق أبوابه. أما الزبير فيد على عقائص المرأة ويد علـى السوط. أما علي فأنه لا يملك شروى نقر وما لديه الا أن يقعد بين شعب المـرأة الأربع. وتزوجت المرأة طلحة الشاب الوسيم الكريم.

وفي خبر رواه الطبري أن رسول الفتح من العراق قد جاء عمر بهديـة من فصوص وجواهر وجدت في خزائن كسرى ووجده يفدّي الناس في المسـجد وهو يقول لخادمه يرفأ : يا يرفأ زد هؤلاء لحماً وزد هؤلاء ثريداً وبعد أن أنـهى ذلك رفع ستارة بابه ودخل الدار. فقال الرسول فلحقته فلما دخل دخلـت فصـاح عمر : يا أم كلثوم غداءنا.

فأخرج إليه زيت وخبز يابس فناداها : الا تخرجين تأكلن معنا ؟

فقالت : لو أردتني أن أخرج إلى الضيوف لألبستني كما ألبس الزبير امرأته وكمـا ألبس طلحة امرأته.

فقال : أما يكفيك أن يقال أم كلثوم امرأة أمير المؤمنين وابنة علي بن أبي طـالب !وهو صاحب القول المشهور " اضربوهن بالعري، لان هي الداغة إلى الخروج ".

أذن من خلال هذه النصوص يمكن أن نقول أن عمر قد أدرك أثر الأدب في المرأة والرجل وحاول إلغاء شعر الغزل ينفي عن المجتمع الجديد الـذي بـدأ يأخذ بأسباب الحضارة كل ميل إلى التحلل والضعف. ولكن الذي يبدو أن عمر لـم ينظر إلى مسألة التكافؤ في الزواج لا في السن و لا في الـثروة واراد بتحريمـه الشعر عامة والنسيب خاصة أن يخلق مجتمعاً من الملائكة. وأن طموح عمر إلـى الزواج يمكن أن يفسر بما للسلطة من أثر نفسي في صاحبها فـي إغفـال السـنّ للزواج السعيد و لا يمكن بأمر من أوامر الخليفة في موضوع لا يخضع للتشـريع أن يخضع عواطف الناس ويصبها في قالب واحد لا في نظـم الشـعر و لا فـي الاستماع إليه

-٤-

الغزل في العهد الأموي :

وتتكرر تجربة محاربة شعر الغزل في العهد الأموي وفي البيت المواني بالذات ويمكن أن يكون لكل حالة تفسير فردي.

يبدو أن العلاقة بين الفرزدق الشاعر المتكبر المغرور بنسبه وبين مروان بن الحكم لم تكن علاقة طيبة منقبل أن يعتلي مروان سدة الأمارة في المدينة. فقد مدح الفرزدق سعيد بن العاص الذي كان دالياً وقال فيما قال :

وقوفاً ينظرون إلى سعيد

فلما خرج الفرزدق خرج مروان في أثره فقال له : لم ترض أن نكون قعوداً حتى جعلتنا قياماً فقال الفرزدق ساخراً : " يا أب عبد الملك أنك من بينهم صافن " وهذا يقال للفرس الذي يرفع يداً عند وقوفه.

"فحقد لذلك مروان عليه ولم تطل الأيام حتى عزل سعيد وولي مروان، فلم يجد على الفرزدق متقدماً حتى قال قصيدته التي يقول فيها :

هما دلتاني من ثمانين قامةً كما أنقض بازٍ أقتم الريش كاسره

فقال مروان : أتقول هذا بين أزواج رسول الله (ﷺ) أخرج عن المدينة .." (١٥)

وما أعتقد أن مروان كان صادقاً في قوله الا إنه أراد أن يكيد الشاعر.

وان مروان في حياته الخاصة كان بذيئاً. فقد تزوج امرأة يزيد بن معاوية بعد وفاته وكان يكيد خالد أبن يزيد الشاب العالم له في المجالس : " يا ابن الرطبة " حتى أضطر خالد إلى أن يشتكي مروان لزوجته (أم خالد) فقالت : لا بأس عليك! انه لن يقولها لك بعد اليوم. وحين عاد مروان من مجلس الخلافة للنوم وضعت هي وجواريها وسادة على فم مروان ولم ترفعها ا لا وهو جثة هامدة .

******

أن اثقف بني مروان كان عبد الملك بن مروان وكان صاحب ذوق فني رفيع ا لا عبد الملك لم ينج من موقف متعنت من شعر الغزل يمكن أن تفسره عدة أسباب مثل إرضاء العامة في المحافل كالحج أو خضوعه لموقف المجتمع من

غيرة الرجل العربي على عرضه فضلاً عن سبب وجيه سوف نذكـــره لا حقـاً.
يظهر موقف عبد الملك من شعر الغزل فيما رواة المرزباني في النص الآتي:
" لما حجّ عبد الملك بن مروان لقية عمر بن أبي ربيعة بالمدينة فقال له عبد الملك : لا حيال الله يا فاسق ! قال : بئست تحية ابن العم لابن عمه على طول الشـــحط (أي البعد) فقال له : يا فاسق، ذاك لانك أطول قريش صبوه وابطؤها توبة.
الست القائل :

ولولا أن تعنفني قريش
مقال الناصح الاذني الشفيق
لقلت إذا التقينا قبليني
ولو كنا على ظهر الطريق (٦٦)

ومما يدل على غيرة عبد الملك على المرأة حتى بعد موتـــه مـــا ذكـــره صاحب الموشح من نقاش بين الا قيثر وعبد الملك حول بيت نصيب بن رباح فـــي الغزل، قال :
" يروي أن الا قيشر دخل على عبد الملك بن مروان فذكر بيت نصيب :

أهم بدعر ما حييت وإن أمت
فواحزنا من ذايهيم بها بعدي؟

فقال : والله لقد أساء قائل هذا البيت. فقال له عبد الملك : فما كنت أنت لو كنـــت مكانه ؟
قال: كنت أقول :
تبكم نفسي حياتي فأن أمت أو كل بدعرٍ من يهيم بها بعدي !
فقال عبد الملك : فأنت والله أسوأ قولاً واقل بصراً حين توكل بها بعـدك.
قيل فما كنت أنت قائلاً يا أمير المؤمنين ؟
قال: كنت أقول:

تحبكم نفسي حياتي فان أمت
فلا صلحت دعد لذى خله بعدي

فقال من حضر : والله أنت لا وجود الثلاثة قولاً، وأحسنهم بالشعر علماً يا أمير المؤمنين" (١٧)

ويبدو أن بيت نصيب وهو عبد محرر لم يلق من قرائه العرب استحساناً لما فيه من ضعف ورخاوة وفي سبيل كيد الشاعر فقد زعموا أن الجن قد أجابت نصيباً على هذا البيت فقالت :

حزن أن ارفاع دعد تفرجت

وأنت صدى بين الحفائر والترب

وأهون علي دعد بفقدك أن ترى

صملاً ينزيها على هامة العرد

ولم يرو العرب ا لا في مقام النادرة والسخرية وصية الزوج بزوجته لآخر وذلك حين سألت امرأة تزوجت أربعة ماتوا عنها وحين حضرت الوفاة زوجها الخامس قالت باكية : إلى من تكلني بعدك ؟

فقال: إلى السادس الشقي.

يبدو لي موقف عبد الملك من شعر الغزل على الرغم من ثقافته ورقة إحساسه وشعوره الحجم بالصورة الشعرية المثلى في أغراض الشعر ا لا أنه إنسان له عيوب الإنسان فهو كبير في السن وكان يكنى أبا ذبان لان في أسنانه تسوس وكان كثيراً ما يسقط منها الدم وكان الذباب يألف شفتيه. وكان غيوراً فقد تنافس على امرأة مع أحد ولانه ففضلت المرأة الوالي عليه فعزله عبد الملك عن عمله ولم يوله عملاً آخر فقال ذلك الرجل قولاً مشهوراً : كعكتان وزينب !

أي لا أبالي بالترف ما دامت زينب معي وعندي رغيفا خبز .

*****

كان الوليد بن عبد الملك بعيداً عن الثقافة فقد قال عبد الملك نفسه :ألهانا حب الوليد عن تأدية، فكان سليمان هو الذي ورث الثقافة وحب الشعر ولكنه سلك مسلكاً غريباً أيضاً تجاه شعراء الغزل لا سباب سوف نشرحها قال المزرباني :

" حج سليمان بن عبد الملك، فلما قدم مكة أرسل إلى عمر بن أبي ربيعة فقال : الست القائل :

وكم من قتيل لا يباء له دم ومن غلق رهناً إذا ضمه مني
وكم مالئ عينيه من شئ غيره إذا راح نحو الجمرة البيض كالدمى
فلم أر كالتجمير منظر ناظر و لا كليالي الحق اقتلن ذا هوى[١٨]

وكان سليمان يكره الفرزدق لفخره– وهو يمدح الخلفاء – بنسبه الضخم وكان يحرمه أحياناً وكان حين يستمع إلى ما يشم منه رائحة الفحش الذي كان يكثر منه الفرزدق كان يخيفه ! لا أن ذكاء الفرزدق كان يخرجه من تلك المآزق.

قال ابن الجوزية : " دخل الفرزدق يوماً على سليمان بن عبد الملك وهو خليفة فقال : أنشدني يا أبا فراس. فأنشده قصيدته حتى بلغ إلى قوله :

خرجن إليّ لم يطمئن قبلي
فهن أصح من بيض النعام
فبتن بجنبي مصرعات
وبت أفض إغلاق الختام

فقال سليمان : ما أضنك يا أبا فراس ! لا قد أحللت نفسك أقررت عندي بالزنا، وأنام إمام و لا بد من إقامة الحد عليك.

فقال : يا أمير المؤمنين ما أحللت نفسي أن كنت تأخذ يقول الله وتمل به. قال سليمان : فبقول الله نأخذ عليك الحدّ.

قال الفرزدق: فأن الله يقول: (والشعراء يتبعهم الغاوون. ألم تر أنيم في كل واد يهيمون. وأنهم يقولون ما لا يفعلون.)

(الشعراء الآيات ٢٤٤–٢٢٦) وأنا يا أمير المؤمنين قلت ما لم أفعل فتبسم سليمان وقال: تلافيتها يا أبا فراس. ودرأت الحدَّ عن نفسك، وخلع عليه وأمر له بجائزة .[١٩]

و لابد أن نقول شيئاً عن موقف سليمان من شعر الغزل.فقد كان الرجل جميلاً جداً ولكنه كما يصفه ابن قيم الجوزية : " كان سليمان بن عبد الملك من أشد الناس غيرة "[٢٠]

وقد كان له جارية أسمها الذلفاء يحبها وكان له مغن يختص به أسم يسار لا يغني الا في مجلس الخليفة حتى حلّ عليه ضيوف اضطروه إلى أن يغني لهم صوتاً في سكنه القريب من مقام الخليفة :

محجوبة سمعت صوتي فارقها
في آخر الليل حتى ملها السهر
لم يحجب الصوت أحراس و لا غلق
قدمها لطروق أبصرت ينحدر
في ليلة البدر لا يدري مضجعها
أوجهها عنده أضوا أم القمر
لو خليت لمشت نحوي على قدم
يكاد من لينه للمشي ينفطر(٢١)

فبكت الزلفاء لما وافق قوله ما في نفسها واستيقظ سليمان من نومه " فقال لها : ما هذا يا ذلفاء ؟ فقالت : يا أمير المؤمنين :

ألا رب صرت رائع من مشوه
قبيح المحيا واضع الأب والجد
يروعك منه صوته ولعله
إلى أمة يعزى معاً وإلى عبد " (٢٢)

ا لا أن ذلك الاعتذار لم يجد ترحيباً عند سليمان فأرسل خلف يسار وقال له:
" ألم أنهك عن مثل هذا الفعل ؟ فقال : يا أمير المؤمنين حملني الثمل، وقوم طرقوني وأنا عبد أمير المؤمنين فأن رأى ا لا يضيع حظه مني فليفعل.
قال : أما حظي أبداً يا يسار ! أما علمت أن الرجل إذا تغنىّ أصغت إليه المرأة ؟ .... يا غلام ائتني بختان، فختنه (أي خصاه) فعاش بعد ذلك سنة ومات " (٢٣)
وسليمان هو الذي كتب إلى عثمان بن حيان المري عالمه على المدينة : " أن أخص من قبلك من المخنثين .. " (٢٤)

وكان سليمان بالغ النَّم وكان حين يأكل ما يشوى له لا يصبر حتى يبرد وكان يمسح دسم اللحم بملابسه ولذلك فحين أخرجت ملابسه للبيع في خلافة عمر بن عبد العزيز كان أغلبها يظهر عليه أثر الدسم الذي مسحه بثيابه.

و لابد أن نقول هنا شيئاً عن عفة شعر الغزل عند العرب وعن كبرياء المرأة العربية وإنها كانت أحق من سليمان أو عبد الملك أو مروان بالدفاع عن شرفها.

ففي أيام عبد الملك وفي زمن سلطان الحجاج الذي تسلط على العراق واحتل الحجاز وقصى على ثورة ابن الزبير تغزل الشاعر النميري بأخت الحجاج في قصيدة مشهورة مطلعها :

تفوح مسكاً بطن نعمان أن مشت

به زينب في نسوة عطرات

وحين استعد الحجاج لغزو الحجاز وكان النميري قد عاد بوالد الحجاج ووالد زينب قام يوسف ابن الحكم وقال لعبد الملك : " يا أمير المؤمنين أن فتى منا ذكر زينب بما يذكر به العربي ابنة عمه وقد علمت أن هذا (أي الحجاج) لم يزل يتقلب عليه. قال عبد الملك : أليس النميري ؟ قال : بأى. قال : قد سمعت شعره فما سمعت مكروهاً. ثم أقبل على الحجاج قال: لا تعرض له ... " (٢٥)

وحين حضر محمد النميري بعد فتح الحجاز للبيعة في آخر الناس " ولم يجد من الحضور بدّاً، فلما دنا منه قال (الحجاج) : أمحمد ؟ قال : نعم. قال أنشدني ما قلت قال النميرة. فأنشدته قصيدتي هذه. فقال : لو لا أن يقول قائل لضربت عنقك. انج لا نجوت و لا تعد فقال : لا تعرضت لا سم زينب ما بقيت"(٢٦)

وسأله عبد الملك عن قوله :

ولما رأت ركب النميري أعرضت

وكن من أن ياغينه حذرات

ما كان ركبك يا نميري ؟

قال : أربعة أحمرة أحمل عليها البعر إلى الطائف.

فضحك عبد الملك من هذا الركب غير المهيب !

والمرأة العربية الشريفة لا نحتاج إلى دفاع عبد الملك أو سليمان فقد ترى في الزواج غير المتكافئ عاراً ما بعده عار.

فحين " تزوج الحجاج ابنة عبدا لله بن جعفر، فلما دخلت عليه نظر إليها وعبرتها تجول على خدّها فقال لها : بأبي وأمي مم تبكين ؟ فقالت : من أتضع !ومن ضعه شرفت. فلما كتب إليه عبد الملك بن مروان بطلاقها. قال لها : أن أمير المؤمنين أمرني بطلاقك. قالت : هو والله أبر بي ممن زوجك إياي. فلما مات أبوها لم تبك عليه. فقيل لها ذلك فقالت : والله أن الحزن ليبعثني، وأن الغيظ ليصمتني ... "(٢٧)

فهؤلاء النسوة وناقدات الحجاز أقدر على إدراك الصورة الجميلة العفيفة في شعر الغزل التي تعتمد على الخيال والإبداع وقدرة الفنان الذي حاول الخلفاء أن يسكتوه. وهل تترك الإبل الحنين ؟

****

أننا في هذا الجزء من هذه الفقرة من البحث نريد أن نستعرض فيها موقف عمر بن عبد العزيز من شعر الغزل، ذلك لان عمر بن عبد العزيز نسيجُ وحده لا يشبه من سبق من الخلفاء و لا يشبه من جاء بعده.

وقف عمر بن عبد العزيز الموقف نفسه من (سلوك الشخص الأخلاقي ومن (الشعر الغزلي) فقد أعتبرها شيئاً واحداً وهذا أمر من رجل مثل فقه عمر.. وكان يحاول أن يحقق ما يشاع عن سلوك الشعراء وله هذا الأختباري مع الفرزدق وكان عمر ما زال والياً على المدينة :

" قدم الفرزدق على عمر بن عبد العزيز وهو أمير المدينة فأكرمه واحسن ضيافة فبلغه أنه زانٍ فأراد أن يختبر ذلك. فقال لجرية له : أطلقي إلى الفرزدق، وعمر في حجرة له ينظر ما يصنع الفرزدق فاتته جارية بالغسل والدهن، وذهبت لتغسل رأسه، فوثب عليها، فركضته وقالت : لعنك الله من شيخ !

ثم خرجت فاتت عمر فأخبرته، فنفاه من المدينة. وقال جرير :